المنســوجات

ذاعت شهرة المنسوجات الايرانية منـذ عصر هيرودوت . وكان أهل روما يدفعون فيها الأثمـان الباهظة ، ثم أقبل أهـل بيزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسـج أوج عزها فى العصر الساسانى . وقـد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة ، فى أكثر هذه القطع ، من مجموعات دوائر أو أشكال هندسية أخرى ، فيها رسوم حيوانات أو طيور أو فرسان فى الصيد ، متقابلة أو متدابرة ، فى ترتيب هندسى جميل . كما أن بين الحيوانات المتقابلة رسما تخطيطيا محورا عن الطبيعة و يمثل شجرة[1] . والمعروف أن الصينيين كانوا يعجبون بهذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وأن حكام الأقاليم الصينية الواقعة بين الصين و إيران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصـين . والحق أن الايرانيين فى ذلك العصر البعيد وفّقوا فى ألوان منسوجاتهم جد التوفيق ، فكان انسجام هذه الألوان وهدوءها يبرزان عظمة الزخارف و يكسبان القطعة سحرا و جمالا .

* * *

فى بحر الاسلام

ولمـا انتشر الاسلام فى إيران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذى ساد العالم الاسلامى فى نشأته ، واختلط العرب بغيرهم من الأمم العريقة فى المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعا خاصا فى الأقاليم الاسلامية المختلفة ، لمـا سنّه الخلفاء والأمراء فى مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية .

(١) انظر Migeon : Les Arts du Tissu ص ١٧ — ٢٣

وأفادت إيران بطبيعة الحال من توحيد جزء كبير من الشرق الأدنى تحت سلطان المسلمين ، وما نتج عن ذلك من نشاط التجارة فى إيران واتساع صادراتها من المنسوجات الحريرية الى سائر الاقطار الاسلاميـة . وأكبر الظن أن الطبقة الارستقراطية فى عصر بنى أمية وبنى العباس كانت تقبل كثيرا على شراء المنسوجات النفيسة المصنوعة فى إيران[1] .

ومما يشهد بازدهار صناعة النسج بايران فى فجر الاسلام أن بعض المدن الايرانية كانت تدفع الجزية عددا من منسوجاتها النفيسة ، وترسله الى بلاط الخليفـــة .

وقد كتب الجغرافيون والمؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى عن المدن الايرانية وما كانت تنتجه من التحف ولا سيما المنسوجات ؛ فان ابن خرداذبة فى كتاب «المسالك والممالك» ، واليعقوبى فى كتاب «البلدان» ، وابن الفقيه فى كتاب «البلدان» ، وابن رسته فى كتاب «الأعلاق النفيسة» ، والمسعودى فى كتاب «مروج الذهب» ، والاصطخرى فى كتاب «مسالك الممالك» ، وابن حوقل فى كتاب «المسالك والممالك» ، والمقدسى فى كتاب «أحسن التقاسيم» ، ثم ياقوت فى «معجم البلدان» ، هؤلاء كلهم وغيرهم من المؤلفين أطنبوا فى الحديث عن ازدهار صناعة النسـج فى كثير من الأقاليم الايرانية ،

---

(١) جاء فى كتاب الأغانى أن كلابة جارية العبلى استنكرت تشبيب الشاعر العرجى (عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان) بالنساء ، وبلغه ذلك فشبب بها وقال

«أمشى كما حركت ريح يمانيـة * غصنا من البان رطبا طله الديم
فى حلة من طراز السوس مشربة * تعفو بهـدابها ما أثرت قـدم»

وفى البيت الثانى إشارة الى الأقمشة الثمينة المصنوعة فى مدينة السوس ؛ والمشربة التى يختلط فيها لونان بلون آخر . راجع الجزء الأول من الأغانى (طبع دار الكتب المصرية ص ٣٨٨ — ٣٨٩)

ولا سيما تستر . وقد ذكر الأصطخرى أنها كانت مركزا عظيما لانتاج الديباج الذى كان يصدر الى شتى بقاع الدنيا[١] ، وكانت تصنع منه كسوة الكعبة ، ثم إصبهان والرى ونيسابور وقزوين ويزدو بصـناو قاشان وآمل ومرو وكازرون وشـيراز ؛ وقد كانت كلها تنتج من المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية ما ذاع صيته فى العصور الوسطى[٢] .

وقد ذكر المسـعودى وياقوت أن شابور ذا الأكتاف (شابور الثانى . ٣١٠ — ٣٧٩ م) كان قد غزا بلاد الجزيرة وآمد (ديار بكر) وغير ذلك من المدن التى كانت تابعة للروم فى ذلك الوقت ، ونقل كثيرين من أهلها النساجين الى إقليم خوزستان فى إيران ، فتناسـلوا وازدهرت صناعة النسج فى هـذا الاقليم منذ ذلك التاريخ .

ومما يؤسف له أن كتابات المؤرخين فى هذا الشأن ليست لها كل الفائدة المنتظرة ؛ لأننا لا نستطيع بفضلها أن نصل الى تحديد أنواع المنسوجات التى كانت تصـنع بايران فى فجر الاسلام ولا المراكز المختلفـة التى كانت تنسج فيهـا .

---

(١) كانت خزائن الفرش والأمتعة بقصور الفاطميين تضم بين كنوزها ستارة ثمينة من الحرير الأزرق المنسوج فى مدينة تستر بخيوط من الذهب والحرير . وكان الخليفة المعز لدين الله قد أمر بعملها سـنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) وفيها صـورة أقاليم الأرض وجبالهـا وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها . (انظر خطط المقريزى ج ١ ص ٤١٧ و « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٥٧) .

(٢) انظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ١٩٩٦ وما بعدها ؛ و : Wiet : L'Exposition persane de 1931 ص ٦ و ٩٣ — ١٢٩

ومهما يكن من الأمر فاننا لا نكاد نعرف اليوم نماذج تستحق الذكر من منتجات إيران فى صناعة النسج فى بفجر الاسلام[1]، ولكننا، اذا ذكرنا ما نعرفه من حالة سائر الفنون الإيرانيـة فى ذلك العصر، وأنهـا ظلت مدة طويلة لا تعرف من التجديد ما يخرجها تماما من دائرة الأساليب الفنية الساسانية، نقول اذا ذكرنا ذلك عرفنا أن صـناعه النسج فى إيران ظلت فى القـرون الأولى بعد الاسـلام متأثرة بالطراز الساسانى فى اسـتخدام الزخرفة بالنقط والأشرطة وورقات الشجر والخطوط المتشابكة والمتقاطعة، وفى استخدام الدوائر المتماسة أو المتداخلة، والمناطق أو الحامات المختلفة الشكل، تضم كل منها بعض مناظر الصيد أو رسوم الحيوانات أو الطيور، الخرافى منها والطبيعى. ولا غرو فقد كان للمنسوجات الساسانية صيت واسع فى الشرق الأدنى منذ العصر الجاهلى، فضلا عن أن النساجين فى كل البلاد والعصور ميالون بطبيعتهم الى المحافظة على أساليبهم الصناعيـة والفنية الى حد كبير، ولم يلق النساجون الايرانيون فى بفجر الاسلام أدنى صعوبة فى هذا السبيل؛ لأن العرب الفاتحين لم تكن لديهم خبرة بفن النسج وأساليبه.

على أن القوم بدأوا يهجرون هـذه الزخارف منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، ولم يكن هذا عسيرا عليهم؛ فقد كانوا، حتى قبل ذلك الحين، يعرفون فى منسوجاتهم بعض الزخارف الأخرى ولا سيما الزهور والنبات.

---

(١) الواقع أن ما نعرفه فى هذا الميدان لا يمكن نسبته، على وجه اليقين، الى إيران، حتى ما عثر عليه بجوار مدينة الرى سنة ١٩٢٥ لا يمكن القطع بصحة نسبته؛ لأن الحفائر التى أسفرت عن وجوده لم تكن علمية بحته، فضلا عن أن تجار العاديات نسبوا الى تلك الحفائر بعض المنسوجات التى يرجح أنها مصرية الأصل.

وقد مرّ بنا أن الصور فى المخطوطات السلجوقية أو المنسوبة الى مدرسة العراق تمتـاز بالملابس المزركشة التى يلبسها الأشخاص . والحق أن زخارف تلك الملابس مثال طيب للجمع بين الأساليب الزخرفية الساسانيـة والأساليب التى جدّت فى القرون الأولى بعدة الهجرة .

ومن المنسوجات التى تنسب الى إيران بين القرنين الثـانى والرابع بعد الهجرة (الثامن والعاشر بعد الميلاد) ضرب من الحرير عليه رسوم حيوانات بخطوط منكسرة وزوايا ظاهرة . وقد كان العالم الانجليزى السير أوريل شتاين Aurel Stein قد عثر فى حفائره ببلاد التركستان الصينية على أقمشة تشبه هذا النوع الذى ينسب الى إيران . وفى اعتقاده أنها من صناعة بلاد التركستان الغربية ، ولا سيما سمرقند وبخارى .

ومن المنسوجات الايرانيـة التى نعرفها الآن قطعة منسوجة من الحرير والقطن كانت فى كنيسة سان جوس Saint-Josse ، وهى قرية واقعة على مقربة من مدينة كاليه بفرنسا . وهـذه التحفه الثمينة معروضـة الآن فى متحف اللوفر بباريس وعليها كتابة نصها « عز واقبال للقائد أبى منصور بختكين أطال الله بقـ[ـاءه] »[1] ؛ ولعله القائد الذى عاش فى بلاط عبد الملك ابن نوح أمير خراسان وما وراء النهر ، وقد حبس وقتل على يد هـذا الأمير فى سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ ميلادية)[2] .

---

(١) انظر Répertoire chronologique d'épigraphie arabe ج ٤ رقم ١٥٠٧ ص ١٥٤

(٢) انظـر تاريخ ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٦ ؛ W. Barthold: Turkestan down to the Mongol invasion ص ٢٥٠ ؛ A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٠٠٢

وقوام الزخارف فى هـذه القطعة رسـوم فيلة كبيرة متواجهة يحف بها شريطان فيهما رسوم طاووس و إبل، ممـا يدل على ماحدث فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من غلبة الأساليب الاسلاميه فى زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات أو بزخارف خطية ونباتية (أنظر شكل ١٢٠).

على أن الأقمشة الايرانية التى ترجع الى القرون الأربعة الأولى بعد الفتح العربى ليس لها شأن عظيم من الناحية الفنية، على الرغم من دقةصناعتها و جمال ألوانهـا ، وعلى الرغم من الاقبال الذى كانت تلقاه الرايات والأعلام الجميلة ذات الكتابات الكوفية، ممـا كانت تنتجه حينئذ مصانع النسج فى إيران .

فى عصر الســلاجقة

والحق أن عصر السلاجقة هو الذى بدأت فيه النهضة الشاملة والتقدم الواضح فى صناعة النســج ، وذلك بتأثير تيـارين مختلفين : الأول ما أفاده الايرانيون على يد السلاجقة من الأساليب الصينية ، التى تتجلى فى دقة رسم النبات والطير والحيوان ؛ والثـانى ما ازدهر فى بلاد الجزيرة من أساليب إسـلامية فى استخدام الفروع النباتيـة والأشرطة عوضا عن الموضوعات الزخرفية الساسانيـة .

والأقمشة السلجوقية معروفة لنا بفضـل مجموعة من النسيج الحريرى ، عثر عليها المنقبون فى أطلال مدينـة الرى ، وتعتـبر مثالا صادقا للمنسوجات السلجوقية . وتمتاز بأن مظهرها العـام يختلف كل الاختـلاف عن مظهر المنسوجات الايرانية فى العصور السابقـة، ولو أنها محتفظة ببعض العناصر الزخرفية القديمة، معدقة فى الرسم، و إتقان فى النسج، ورقة وخفة فى الوزن .

فنرى على بعضها زخارف من أشكال هندسية متعددة الأضلاع، أو زخارف كتابية بالخط الكوفى ، أو أشرطة من الرسوم الحيوانية، أو دوائر فيها طيور وحيوانات بينها شجرة الحياة؛ ولكنها دوائر أصغر حجما، تكسب التحفة طابعا فنيا، وتبعدها عن القوة والبداوة التى تبدو على بعض الرسوم الساسانية .

ولا ريب فى أن مدينـة الرى كانت فى العصور الوسـطى مركزا عظيم الشأن فى صناعة النسج ، كما كانت فى صناعة الخزف؛ فقـد ذكر المؤرخون والجغرافيون ذيوع صيتها فى هذا الميدان؛ فضلا عن أن أعمال التنقيب عن الآثار فى أطلالهـا لم تسفر عن المنسوجات التى أشرنا اليها فحسب ؛ بل عثر القوم على أنوال ترجح أن تلك الأقمشة كانت تصنع فى مدينة الرى نفسها .

وتنسب الى الرى قطع تمتاز بجمالها الفنى وإبداع ما فيها من الرسوم الحيوانية والآدمية، فضـلا عن السطور المكتوبة بالخط الكوفى . وتشبه زخارف هذه الأقمشـة ما نعرفه من الرسوم فى الخزف المنسـوب الى مدينة الرى، ولاسيما رسوم الحيوانات ذات الأجسام الممتـدة ، تتقدم فى شـبه نشاط وخفة . ومن الزخارف التى تكثر فى منسوجات الرى ، دون غيرها، رسم الطاووس .

وقد اشتهرت تلك المدينـة بصناعة نسـيج من الحرير ذى لحمتين اسمه "المنير" ؛ ولكننا لا نظن أن نسجه كان وقفا عليها ، دون غيرها من البلاد الايرانيـــة .

ومما ينسب الى إقليم فارس، جنوب غربى إيران، قطعة جميـلة من نسيج الكتان محفوظة فى مجموعة المسز وليم مور ، وفيها أشرطة منسوجة من

الحرير الأبيض والأسود، نرى بين زخارفها مناطق فيها رسوم بط وأوز، كما نرى رسوم نجوم مثمنة وفيها رسوم حمار بين فروع نباتية وفوق رأسه طائر.(١)

وثمة قطعة نسيج أخرى تنسب الى الاقليم نفسه، وترجع الى القرن الخامس أو السادس بعد الهجرة (الحادى عشر أو الثانى عشر بعد الميلاد)، وقد كانت سابقا فى مجموعة رابنو . وتنتهى هذه القطعة بشريط من أربع مناطق، العليا والسفلى واسعتان وفيهما رسوم نباتية سلجوقية الطراز، بينها أوز مرسوم بأسلوب زخرفى جميل . أما المنطقتان الواقعتان فى الوسط ففيهما سطران من الكتابة الكوفية (انظر شكل ١٢١) .

ومما ينسب الى مدينة يزد قطعة نسيج فى مجموعة المسز وليم مور ؛ وترجع هذه التحفة الى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وأرضيتها زرقاء مائلة الى السواد وعليها شريط من الكتابة بخط كوفى رائع المظهر وتزينه رسوم نباتية جميلة(٢) . (انظر شكل ١٢٢) .

وينسب الى قاشان ضرب من المنسوجات تكثر فى زخارفه رسوم وثيقة الصلة بالرسوم والأساطير التى عرفتها إيران قبل الاسلام . ومثال ذلك شجرة الشمس، ذات الحبوب الكثيرة والقرون النباتية التى تتفرع منها، ثم رسوم الخيل يتدلى الى جانبها جراب السيف المقدس(٣) . كما نرى على قطعة مشهورة رسم فارسين بينهما شجرة وفى يد كل منهما باز وتحت حصان كل منهما

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٣ شكل ٦٤٥

(٢) انظر G. Wiet : La valeur décorative de l'Alphabet Arabe فى مجلة Arts et Métiers Graphiques عدد ٤٩ (سنة ١٩٣٥) .

(٣) راجع A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٠١٢

أسد رابض، كل هذا فى منطقة يحدها شريطان ملفوفان[١] . وعلى قطعة أخرى رسم نسر كبير ذى رأسين ، وجناحاه مبسوطان و بينهما رسم إنسان متوج وعلى يمينه ويساره رسم أسد مجنح .

فى عصر المغول

فى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) زاد تأثر المصانع الايرانية بالأساليب الصينية فى زخرفة المنسـوجات ، بسبب ازدياد الوارد من الأقمشة الصينية ، واتساع تجارة إيران مع الشرق ، ثم بسبب غزوات المغول وقدوم كثيرين من النساجين الصينيين الى إيران .

وقد مر بنا أن الصـين فى ذلك الوقت خضعت لأسرة يوان المغولية الأصل ، والتى ظلت تحكمها حتى سـنة ٦٦٨ هـ (١٣٦٧ ميلادية) . وكان طبيعيا أن يعظم التبادل الثقافى والفنى بين أبنـاء البيت الواحد من المغـول فى أمبرطوريتهـم بالصين وأمبرطوريتهـم فى إيران . والمعـروف أن جاليات إسلامية نمت فى الصين حينئذ ، واشتغلت بنسج الحرير الذى كان يصدر الى أنحاء الشرق الاسلامى ، فيؤثر على الأساليب الفنية فى مراكز النسج فيه ، بل أتيح له أيضا أن يؤثر على أساليب الزخرفة فى مصانع النسج الايطالية . وأقبل النساجون فى إيران على تقليـد الموضوعات الزخرفية الصينية كالتنين والعنقاء وما الى ذلك من الحيوانات الخرافية ، ثم زهرة اللوتس[٢] وعود الصليب

---

(١) انظـر Wiet : Un tissu musulman du nord de la Perse فى مجلة Révue des Arts Asiatiques ج ١٠ (سنة ١٩٣٦) ص ١٧٣ — ١٧٩

(٢) لم تكن زهرة اللوتس موضوعا زخرفيا صينى الأصل ؛ بل استعملت فى العصور القديمة فى مصر وسورية ثم استعملت فى الهنـد وانتقلت منها مع الديانة البوذية الى الصين . على أنها لم تتخذ فى الصين لزخرفة المنسوجات إلا منذ أسرة طنج (٦١٨ — ٩٠٦ م) .

(الفاوانيا) ورسوم السحب الصينية أو «تشى» التى امتازت بها المنسوجات الصينية منذ عصر أسرة هان (٢٠٢ ق . م — ٢٢٠ م) .

والمعروف أن بعض مراكز النسج الإيرانية، ولا سيما السوس وتستر، فقدت فى عصر المغول شهرتها السابقة بسبب ما أصابها من التـدمير على يد جيوشهـم ؛ ولكنا لا نجهـل أن بعض المراكز الأخرى ، ولا سيمـا هراة ونيسابور، لقيت منهم تعضيدا عظيما . كما أنهم، حين دمروا مدينة مرو، أبقوا على حياة عدد كبير من الفنانين فيها (١) . ومن المدن التى ذاع صيتها فى تجارة المنسوجات فى ذلك العصر مدينتا تبريز (٢) وقم (٣) .

على أن عناية المغـول بصناعة النسج تظهر من جمـال المنسوجات المرسومة فى الصور المنسوبة الى عصرهم والتى يلبسها الأشخاص المرسومون فى الصـورة ، أو تصنع منها المظلات والستائر وأغطية الأرائك وغير ذلك من الأشياء الثانوية فيها .

ويلاحظ فى رسوم المنسوجات المغولية انتشار الزخرفة بالأشرطة، على النحو الذى أقبـل عليه النساجون فى شتى أنحـاء العالم الإسـلامى، على أن الأشرطة فى الأقمشـة المغولية أصبحت ضـيقة ، وروعى فى جمعها التنويع

---

(١) انظر W. Barthold: Turkestan down to the Mongol invasion ص ٤٤٨

(٢) راجع Heyd: Histoire du Commerce du Levant ج ٢ ص ٦٩٧

(٣) انظر A Survey of Persian Art ص ٢١٦٦ ؛ و H. Howorth: History of the Mongols ج ٣ ص ٣١٥

وجمـال المنظر ، كما ملىء بعضها بخطوط هندسـية مستقيمة أو منكسرة أو متقاطعـــة[١] .

وقد نرى فى رسـوم تلك المنسوجات فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) موضوعات زخرفية نباتية محورة عن الطبيعة تحويرا لا يفقدها كل اتصال بها . وتمتاز تلك الموضوعات بأن رسوم أوراق الشجر فيها مدببة فضـلا عن أنها لا تنمو من السـاق فحسب ، بل قد تنبت من الجذر أيضا ، وأحيـانا من الأرض نفسها ، فتغطى النسيج كله وتجعله كالحديقة الغنـاء ، وتزيد الشبه بينه وبين أرضية الصور فى المخطوطـات التى ترجع الى نهاية العصر المغولى والى المدارس التيمورية المختلفة ولا سيما مدرسة هراة .

ومن أهم الموضوعات الزخرفية التى أنتشرت على المنسوجات فى عصر المغول وعصر بنى تيمور رسـوم الفروع النباتية (الأرابسك) ورسـوم بلاط القاشـانى[٢] .

وتنسب إلى مدينة تبريز مجموعة من الأقمشة المغولية الحريرية ، عليها رسوم طيور كبيرة فوق أرضية من أطلس (ساتينيه)[٣] . وعلى إحدى القطع من تلك المجموعة كتابة بالخط النسخى الكبير باسم السلطان «أبو سعيد» (٧١٧ — ٧٣٦ هـ . أى ١٣١٧ — ١٣٣٥ م) . وهى محفوظة الآن فى إحدى متاحف فينا ، وقد كانت جزءا من كفن رودلف الرابع دوق النمسا[٤] .

---

(١) انظـــر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٠٤٢ — ٢٠٤٤ وشكل ٦٦٠

(٢) راجع المصدر السابق ص ٢٠٤٧ شكل ٦٦٣

(٣) انظر اللوحة رقم ١١٠ ، شكل ١٢٣

(٤) أنظر A Survey of Persian Art ج ٦ ، اللوحة رقم ١٠٠٣

وثمـة مجموعة أخرى تظهر فيها شـدة التأثر بالأساليب الفنية الصينية؛ وأشهر القطع المعروفة من هذه المجموعة محفوظة فى إحدى الكنائس بمدينة دانزج Marienkirche وفى متاحف برلين[١]. ويظن أنها صنعت للسلطان المملوكى محمـد بن قلاوون. وقوام زخرفتها رسم طائرين متدابرين فى منطقة هندسـية ذات اثنى عشر ضلعا، فضلا عن مناطق أخرى فيها كتابة بالخط النسـخى[٢].

ومن الأقمشة التى يظهر فيها التأثر العظيم بأساليب الشرق الأقصى مجموعة ذات زخارف فى أشرطة، بعضها مقسم الى مناطق متعددة. وقد جاء على إحدى هذه القطع اسم ناسجها «عبد العزيز»[٣].

وقد لاحظ الاخصائيون فى صناعة النسج أن عصر المغول لم يأت بجديد فى هـذا الميدان، بل إن بعض الأنواع الدقيقة لم يتقنها النساجون فى ذلك العصر، فضلا عن أن الألوان قل بهاؤها وتنوعها؛ ولكن الأرجح أن هـذا لا يرجع إلى عيب فى الصناعة، وإنما الى مراعاة الذوق السائد فى تلك الأيام. ولاريب فى أن الألوان الهادئة التى أمتازت بها المنسوجات المغولية ترجع الى تأثير الأساليب الفنية الصينية.

ومهما يكن من الأمر فاننا نرى فى المنسوجات المغوليـة بدء الرشـاقة والدقة والعظمة والترف فى الزخرفة وفى الصناعة؛ مما مهّد لمـا بلغته المنسوجات

---

(١) المصدر نفسه، اللوحة رقم ١٠٠٠

(٢) راجع مادة «طراز» فى دائرة المعارف الاسلامية، ج ٤ ص ٨٢٨ من النسخة الفرنسية

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٠٥٤ و ج ٦، اللوحة رقم ١٠٠١

فى العصر الصفوى . أما الروعة والشـدة والحرية فى الزخرفة وما إلى ذلك مما نعرفه فى المنسوجات الساسانية والمنسوجات الإيرانية فى صدر الاسلام، فلم يبق منها شيء كثير .

فى عصر التيموريين

كانت الأقاليم الشرقية فى إيران أكثر أجزاء الدولة ازدهارا فى عصر بنى تيمور ؛ وزاد ما كان لخراسـان من شأن عظـيم فى صـناعة النسـج . وأصبحت سمرقند وهراة فى عصر تيمور وخلفائه مركزا عظيما لنسج الأقمشة النفيسة ، التى كان الأمراء وكبار رجال الدولة يلبسونها و يتخذون منهـا أفخر الستائر والفرش والوسادات . وقد استقدم تيمور من الصين ومن الشام نساجين كان لهم نصيب وافر فى الذى بلغته صناعة النسج على يد التيموريين من ازدهار و إتقان، وفيما يظهر فيهـا من أساليب زخرفية صينية وسورية .

والواقع أن المنسوجات الايرانية فى عصر التيموريين تمتـاز بزيادة استخدام الزخارف النباتية المتصلة على النحو الذى نعرفه فى الأقمشة المصرية والعراقية فى ذلك العصر، كما تمتاز أيضا بوجود ضروب جديدة منها : هى الديباج والنسيج المقصب بالذهب والفضـة والمزين برسوم طيـور صينية الطراز ، فضلا عن المخمل « القطيفة » التى شاهدها عندهم فى ذلك العصر أحد الرحالة الايطاليين[1]

وقد ازدهرت صناعة النسج فى العصر التيمورى بمدينة يزد و إصفهان وقاشان وتبريز ؛ وكانت الأقمشة تصدر من هذه المدن الى شتى أنحاء العالم الاسلامى .

---

(١) انظر Vincenzio d'Alessandria فى C.Grey (Trans.) A Narrative of Italian Travels in Persia ص ٢٢٥

ومع أننا لا نكاد نجد الآن شيئا من منسوجات هذا العصر، فاننا نعرف عنها كثيرا، ولا سيما من رسومها فى صـور المخطوطات . وطبيعى أن التأثر بالأساليب الصينية ظاهر فيها تمـام الظهور . فالعلاقات الوثيقة بين إيران والشرق الأقصى لم تصب فى عصر بنى تيمـور إلا زيادة ونموا . وتبـودلت البعثات بين البلدين . وكان الايرانيون يجلبون من الصين شتى التحف والهدايا ولا سيما المنسوجات والخزف . وقد مرّ بنا خبر البعثة الايرانية التى سافرت الى الصين بين عامى ٨٢٣ و ٨٢٦ هـ (١٤٢٠ و ١٤٢٣م)، وكان من أعضائها المصوّر غياث الدين الذى وصف مشاهداته فى تقرير ضمنه بيانات وافرة عن العمارة والملابس (١) .

وزاد وجود زهرة اللوتس فى زخارف المنسوجات أثناء القرن التـاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، كما زادت الدقة فى رسم الموضوعات الزخرفيـة عموما ، ولا سيمـا البط الذى اسـتخدم كثـيرا فى زخارف ذلك العصـــر .

وصفوة القول أن الأقمشة فى عصر بنى تيمور خطت خطوة عظيمة فى سبيل الوصول الى إتقان الرسوم الزخرفية والوصـول بها الى دقة ورشاقة وقرب من الطبيعة وما الى ذلك ، ممـا أبعدها عن الشدّة والجفـاء والروعة التى عرفناها فى المنسـوجات الساسانيـة والمنسـوجات المنسـوبة الى فجر الاســلام .

---

(١) انظر N. Quatremère : Matla-Assaadein ou- madjmaa albah-rein, Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi. XIX, I سنة ١٨٤٣ ص ٣٨٧ — ٤٢٦

فى العصر الصفوى

إذا صح ما ذكره الرحالة الذين زاروا إيران فى العصر الصفوى ، فقد كان هــذا العصر أعظم العصور الذهبية فى صناعة النسج الإيرانية إذ كان الملك والأمراء ورجال البلاط وعلية القوم كلهم يرفلون فى الملابس المصنوعة من الديباج وغيره من الأقمشــة الثمينة المحلاة بخيوط الذهب والفضة ، ويركبون الخيل ذات السروج الغاليــة النفيسة ، ويستعملون فى قصورهم ورحلاتهم فرش وستائر وأدوات مصنوعة من أجمل ضروب النســيج على الاطلاق . والحق أنهــم كانوا يسرفون فى استخدام الأقمشــة البديعة إسرافا لاحدّ له . وكانوا يصــنعون منهــا كميات وافرة جدا ، يحمل التجار بعضها الى أسواق الروسيا وأوربا ، حيث كانت تلقى إقبالا عظيما .

وأتقن النساجون الايرانيون فى العصر الصفوى شتى ضروب النسج من ديباج وكتان وأطلس وقطيفة وكتان . كما توصــل الفنانون فى الصباغة الى إخراج أدق الألوان وأكثرها تنــوعا ، وفى الثروة الزخرفيــة الى درجة لم يعرفوها من قبل ، فاتخذوا الزهور والفروع النباتية والمراوح النخيلية ، ومناظر الحدائق الغناء ، والطيور والغزلان ، ورسوم السحب الصينية . وطبعت الرسوم الزخرفيــة فى ذلك العصر بطابع رشــيق جذاب ، ينم عن الأناقة والنضوج الفــنى .

وظهر فى المنسوجات الايرانية منذ نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ميل الى المسحة التصويرية ، ظل يزداد حتى أصبح من أبين صفات الأقمشة الايرانية فى العصر الصفوى ؛ وظهرت العلاقة الوثيقة بين

زخارف تلك الأقمشة و رسوم المخطوطات وصورها[١] ، فضلا عن دقة الرسوم وتقليد الطبيعة تقليدا صادقا ، بفضل التأثر بالصينيين فى هذا الميدان .

وعلى كل حال فان نسج الحرير بلغ عصره الذهبى فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) برعاية ملوك الأسرة الصفوية . وأنتجت المصانع الايرانية فى ذلك العصر أجمل أنواع الديباج والمخمل المنسوجة بخيوط حريرية مختلفة الألوان ومحلاة فى بعض الأحيان بخيوط فضية .

أما زخارفها فمن قصص الشاهنامه ، أو منظومات الشعراء الايرانيين المعروفين ، أو مناظر تمثل الأمراء والنبلاء فى الصيد ، فضلا عن مناظر الحفلات فى الحـدائق والهواء الطلق . ومن الزهور التى استخدمت كثيرا فى زخرفـة المنسوجات الايرانيـة فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) السوسن والزنبق والخزام والورد . أما الحيوانات والطيور فقـد استخدم النساجون منها رسـوم الوحـوش الضارية والأرنب والغـزال والببغاء ؛ كما اسـتخدموا رسم شجـر مخروطى الشكل . وكانت كل هـذه الموضوعات المختلفة ورسـوم المناظر الطبيعية ، مضافـة الى رسم شتى المناظر من قصـة خسرو وشيرين أو ليلى والمجنون ، كان كل ذلك يرتب فى صفوف أفقيـة ، ويكسب المنسوجات الصفوية بهجة ونضارة تزيدان فى قيمتها الفنية .

---

(١) فى مجموعة المسز مور Mrs. W. H. Moore قطعة من الحـرير عليها رسم رجل يقود أسيرا بحبل فى رقبته ، ويشبه طراز الرسم ما نعرفه من صـور المصور محمدى . وليس غريبا أن يشتغل هـذا الفنان باعداد الرسوم للمنسوجات ، فقد اشتغل أبوه ، سلطان محمد ، بهذا العمل فى بلاط الشاه طهماسب . أنظر A Survey of Persian Art ج ٦ اللوحة رقم ١٠١٢

وطبيعى أن ملابس القوم فى هذه الرسوم، ولا سيما لباس الرأس تساعد على معرفة التاريخ الذى ترجع اليه، وتجعلها شديدة الشبه بالصور المنسوبة الى المصوّر المشهور سلطان محمد .

وكانت أعظم مراكز النسج فى هذا العصر تبريز وهراة ويزد وإصفهان وقاشان ورشت ومشهد وقم وساوه وسلطانية واردستان وشروان . وامتازت منتجاتها بنعومة السطح وبدقة النسج وباتزان الألوان وجمالها .

أما رشت فقــد صنعت فيها أقدم قطعة نعرفها من الحرير الصفوى، عليها تاريخ صناعتها . وهى غطاء قبر فى الضريح بمــدينة مشهد، وعليها أنها من عمل مير نظام فى رشت سنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ م)؛ وزخارفها من أشرطة فيها رسوم فروع نباتية ووريدات وكتابات .

بينما اشتهرت تبريز ويزد بنسج الأقمشة ذات الزخارف الآدمية التى كان يقوم برسمها أعلام المصورين فى العصر الصفوى ومن ينسج على منوالهم من الفنانين . وفى المتاحف والمجموعات الأثرية الخاصــة قطع نسيج صفوية، بعضها شديد الشبه بأسلوب المصور سلطان محمــد وأبدع المعروف من هذا النوع قطعة فى متحف فكتوريا والبرت عليها رسم فارس فوق أرضية من زهور وأوراق شجر[1] . وتشبه بعض قطع أخرى أسلوب المصور مير نقاش، الذى يظن أنه خلف سلطان محمد فى رئاسة مجمع الفنون الملكى؛ ومنها جانبا خمار من الديباج محفوظ فى متحف الفنون الزخرفية بباريس وقوام زخرفتهما

---

(١) انظــر Brief Guide to the Persian Woven Fabrics (Victoria and Albert Museum) ص ١٦ ولوحه ٣ شكل ٢

رسم ساق بين فروع نباتية دقيقة[1] . وثمة قطع تذكرنا بأسلوب المصور محمدى وقد جئنا برسم إحداها فى لوحات هذا الكتاب (أنظر شكل ١٢٦) . وهى محفوظة فى متحف تاولوف Thaulow فى مدينة كيل Kiel ، وقوام زخرفتها رسم جندى ذى خوذة يقود أسيرا و يتحدث الى شخص جالس ، بينما يقف أمام الأسير شخص آخر، و يقوم المنظر كله فوق أرضية من نبات وأشجار ذات جذوع رفيعة و يعلو كل منها رسم طاووس ؛ أما تحتها فرسم بركة فيها سمكات .

وقـد لوحظ أن هـذه الرسوم الآدميه والنباتية الأنيقـة لاتوجد على منسوجات فاخرة من الحرير ذى الخيوط الفضية فحسب ؛ بل نرى رسوما من فصياتها على أقمشة تقل فى جودة النوع والصناعة ؛ و يفسرون ذلك بأن مدينة تبريز أصبحت هدفا لغارات الترك منذ سـنة ٩٩٣ هـ (١٥٨٥ م)، فنقل الشاه مقر حكمه الى قزوين ؛ ولكن هذه المدينة الأخيرة لم يقدّر لها أن تصبح مركزا فنيا زاهرا كما كانت تبريز من قبلها .

ولا ريب فى أن تعاون المصورين والنساجين فى يزد وقاشان أسفر عن صنع قطع تعد آية فى فن النسج والزخرفة . والظاهر أن مصانع النسج فى يزد كانت تحت رعاية الحكومة و إشرافها .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة نماذج طيبة من هذه المنسوجات ذات الصور الادمية .

وقـد وصلت الينا أسمـاء بعض النساجين الايرانيين فى القرن العـاشر الهجـرى (السادس عشر الميـلادى) وهم غياث وعبد الله وحسين ويحيى

---

(١) انظـــر R. Koechlin & G. Migeon : Islamische Kunstwerke لوحة ٧٢ ؛ وتراث الإسلام ج ٢ شكل ٣٥ .

ومعز الدين بن غياث وايان محمد؛ وذلك على بعض القطـع المنسوبة اليهـم والمحفوظة الآن فى المتاحف والمجموعات الأثرية بأوربا وأمريكا .

أما غياث الدين على فقد كان من أهل يزد[(١)]، نشأ فى أسرة لهـا بالفن صلة وثيقة؛ فقد كان جده كمال الدين خطاطا مشهورا . وكان لغياث مال وافر ساعده على أن يصبح من بطانة الشاه عباس . ثم ذاع صيته فى صناعة المنسوجات المصورة؛ وكان الشاه يرسل من منتجاته الهدايا الى الملوك والأمراء. على أننا لا نعرف اليوم إلا ثمان قطع من صناعة هذا الفنان ، بينها تحفتان من الحرير وتحفتان من « القطيفة » . وثمة قطع أخرى ليس عليها اسمه؛ ولكن الأرجح أنها من صناعته[(٢)] . وعلى كل حال فان رسوم غياث يظهر فيها الأسلوب الفنى الذى ينسب الى رضا عباسى كما نرى فيها إتقـان بعض الموضوعات الزخرفيـة النباتية كالوريدات والأرابسك وزهرة اللوتس وأوراق العنب والمراوح النخيلية .

ولكن عبد الله لم تكن له مهارة غياث الدين أوشهرته . والقطع الأربع التى عليها اسمه لا تشهد بأنه كان فنانا من الطراز الأول؛ فضلا عن أنه لم يكن مبدعا ، وانما سار على الأساليب الفنية التى اتبعها النساجون فى تبريز من قبله .

بينما لا نعرف عن حسين الا ما نراه على قطعة صغيرة من الحرير فى المتحف المترو بوليتان بمدينة نيويورك[(٣)]، موجود فيها : « عمل حسين سنة ١٠٠٨ » .

---

(١) انظـــر Ph. Ackerman : A biography of Ghiyath the weaver فى العدد السابع (سنة ١٩٣٤) من مجلة المعهد الامريكى للفن والآثار الايرانيـة Bulletin of the American Institute for Persian Art and Archeology.

(٢) راجع A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٠٩٤ — ٢١٠١

(٣) انظر Dimand : Mohammedan Decorative Arts ص ٢١٧ شكل ١٣١

وطبيعى أن أسلوب رضا عباسى فى تصوير الأشخاص، فى مواقف يبدو منها الكسل والتخاذل والتخنث ؛ كان له أثر كبير فى رسـوم الأقمشة الثمينة فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى)[1] .

ويجدر بنـا ألا ننسى ما كانت عليه زخارف المنسوجات التى نحن بصددها من اختلاف وتنوع فى حجم الزخارف وفى المظهر العام وفى الألوان المستخدمة . وقـد كان الانشاء الزخرفى فيهـا بديعا ومحكما ، بحيث تتدرج رسومها المختلفة ، ويستطيع المشاهد أن يرى بدائع أقسامها المختلفة بحسب قرب التحفة أو بعـدها عنه ؛ فانه يعجب بالزخارف الدقيقـة ، إذا كانت التحفة قريبة منه ؛ ويعجب بالمناطق التى تضم هذه الزخارف ، اذا بعد عن التحفة قليـلا ؛ ويؤخذ بجمـال المظهر العـام ، اذا زاد بعده عن التحفـة فغابت عنه التفاصيل . وخير مثال على هـذا قطعة ديباج مشهورة كشفت سـنة ١٩٢٩ ؛ وتمتاز بألوانها البديعة ورسمها الدقيق وسطحها المقسم الى عدد من المناطق ، بعضها مكونة من نجوم مثمنة وذات فصوص ، وبعضها مثمنة لا فصوص لهـا ، وفى النجمة المتوسطة أمير على عرش ، بينما تحتوى النجوم الأخرى عل رسـوم ملائكة تعزف على آلات موسـيقية أو تحمل التحف والهدايا . أما المناطق الصغيرة ففيها رسوم حيوانات عديدة ، حقيقية وخرافية ؛ وثمة مناطق أصغر حجما وفيهـا رسوم زهاء تسعين نوعا من الطيور المختلفة المرسومة بأسلوب طبيعى دقيق وفى أوضاع متنوعة .

ولم تكن المنسوجات الايرانية فى العصر الصفوى ذات زخارف آدميـة وحيوانية فحسب ؛ بل كان بعضها مزينا برسـوم نباتية بحتة ، كما يظهر من

(١) انظر اللوحة رقم ١١٤ شكل ١٢٧ .

رســوم الملابس فى كثير من صـور المخطوطات التى ترجع الى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

على أن أبدع ما أنتجه النساجون الايرانيون هـو المخمل (القطيفـة) ذو الرســوم القوية والألوان البديعة الفنية . وقد اشتهرت بانتاجه مدينـة قاشان فى نهـاية القرن العاشر و بداية القرن الحادى عشر بعد الهجرة (نهاية السادس عشر و بداية السابع عشر الميلادى) ؛ وامتاز بابداع ألوانه و برسومه التى تشبه الى حد كبير رسوم الصور فى المخطوطات .

ولمـا تولى الشاه عباس الأكبر (٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ ، أى ١٥٨٧ — ١٦٢٨ م) ، وكان كما نعرف من أكبر رعاة الفن والفنانين فى إيران ، شمل برعايته إنتاج الديباج والمخمل الثمين ؛ وأنشأ المصانع لنسجهما فى شتى البلاد ولا سيما فى إصفهان . وامتازت المنتجات المنسوجة فى عصر الشاه عبـاس باستخدام الألوان الهادئة و رسم الأشخاص رسما أقرب الى الطبيعة .

وزادت ثروة إيران فى عصر الشاه عبـاس ، وعظم الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت بعض الشىء على جودة النوع وجمال الرسم ، اللهـم الا فيما كان يصنع للبلاط و رجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف فى نهـاية القرن العاشر الهجرى (السادس العشر الميـلادى) و بداية القرن الحادى عشر رســوم أشخـاص ذوى قدود هيفاء وأوضاع فيهـا كثير من التكلف وفتيات أو فتيان يكاد المرء يحسبهن نساء ، وما الى ذلك من الصـور التى عرفناها فى أسلوب المصـور رضا عباسى . والواقع أن تأثير هـذا المصوّر وذيوع صور فتيانه وفتياته لم يكن فى الصـور

المستقلة والمخطوطات والمنسوجات فحسب ؛ بل كان فى صور الجدران وفى لوحات القاشانى .

على أن أقمشة هـذا العصر لا تبلغ فى جودتها أقمشة العصور السابقة . فضلا عن أن الفنانين لم يأتوا بجديد فى زخارفها ؛ وانما نسجوا على منوال ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ؛ ولكنهم عادوا الى الولع برسوم الزهور والنبات ، فاتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعد الهجرة (السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد) وأصابوا فيها توفيقا كبيرا . وشجعهم فى هذا السبيل تجار البضائع الصينية الذين كانوا ينزلون مدينة أردبيل ، والخزفيون الصينيون الذين كانوا ينزلون شتى المدن الايرانيـــة .

وقد وصلتنا أسماء بعض النساجين فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) . وهم محمد خان وعلى واسماعيل قاشانى ومعين ، وكلهم من مدينة قاشان[1] ؛ ثم مغيث وآقا محمود وهم من أهل إصفهان[2] ؛ كما نبغ فى هذه المدينة المصور شفيع عباسى الذى اشتهر باتقانه رسوم الزهور والطيور والذى كان مصور البلاط فى عصر الشاه عباس الثانى .

ومما أنتجته مصانع النسج الايرانية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعد الهجرة (السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد) أحزمة حريرية طويلة ، قوام زخارفها أشرطة أفقية وتنتهى فى طرفيها بمنطقة أوسع مساحة وفيها جامات وزخارف نباتية (أنظر شكل ١٣٢) . ويمتاز هذا النوع من الأحزمة بأن

---

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢١٢١ - ٢١٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٢٩ — ٢١٣١

النساجين فى جنوب شرق بولندة[1] أقبلوا على تقليده فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى)، بعد أن استورد بعض التجار الأرمن كميات كبيرة من الأحزمة الحريرية الايرانية؛ وأينعت تجارتهـا حتى اضطروا الى نسـج مثلها فى بولندة نفسها، واستخدموا زخارفها المكونة من الأشرطة والرسوم الهندسية ورسوم الزهور. ولم تلبث منتجات الصناعة المحليـة أن طغت على الأحزمة الشرقية الواردة من إيران أو استانبول.

ومما اشتهرت بانتاجة مدينة يزد نوع من المخمل القرمزى الغامق، كان يتخذ فى البيوت محاريب أو سجاجيد للصلاة؛ وكان قوام زخارفه عدد قليـل من الزهور الكبيرة ذات السـيقان الطويلة، وذات اللون الأصفر الذهبى، ومعها بعض وريقات خضراء.

وفى متحف فكتوريا والبرت بلندن قطعة نسيج من صناعة يزد، قوام زخرفتها مراوح نخيلية وفروع نباتية مزهرة، وبينها رسم صلب السيد المسيح، وعلى جانبى الصليب العذراء والقديس يوحنا. ويقال إنها إحدى قطعتين أحضرهما سفير الشاه عباس الى دوج البندقية سنة ١٦٠٠ (انظر شكل ١٣٠)

أما إصفهان عاصمة الدولة فى عصر الشاه عباس فقـد كان فيهـا ألوف النساجين، لاينقطعون عن العمل لانتاج الكميات الهائلة من الخلع الثمينة، التى كانت لازمة للبلاط، أو للهدايا التى يقدمها الشاه؛ كما أفادت، باعتبارها عاصمة البـلاد، من وجود أعلام المصورين والرسامين الذين كانوا خير عون ومثال للفنانين فى صـناعة النسج. ولا ريب فى أن إصـفهان أنتجت شتى

---

(١) راجع مقالنا عن «أثر الفن الاسلامى فى بولندة» بالعدد ٤١ من مجلة «الثقافة» فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٩

أنواع المنسوجات النفيسة ؛ ولكن الظاهر أن النساجين فيها أتقنوا بنوع خاص صناعة الأقمشة ذات الزخارف النباتية الجميلة .

وكذلك مدينة قاشان لم يعد إنتاجها الفنى موجها الى الخزف فحسب ؛ بل أصبحت مركزا عظيما للنسج منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)؛ ولكن المخمل الذى كان ينسج فى أنوالها إبان القرن الحادى عشر الهجرى بلغ كمية هائلة ، أثرت فى جودة الصناعة الى حدٍ ما .

أما مدينة مشهد فقـد ظهر أنها أيضا من المراكز التى كانت تنسج فيها الأقمشة الفاخرة . وثمة قطعة عليها كتابة تفيد أنها صنعت فى تلك المدينة على يد فنان اسمه محمد بن عمر سنة ١٠٦٥هـ (١٦٥٤م)[1] ؛ كما ذكرت منسوجات مشهد فى سجلات الجمارك الروسية القديمة .

والواقع أن صناعة النسج ازدهرت فى عصر الأسرة الصفوية ازدهارا عجيبا ؛ واستطاع النساجون أن ينتجوا من الحرير ضروبا شتى تختلف فى نوعها وفى وزنها وفى سمكها ، وقد تدخل فى نسجها الخيوط الذهبية فتكسبها بريقا وأبهة عجيبين .

فى القرن الثانى عشر الهجرى

كان الانتاج عظيما فى بداية القرن الثانى عشر الهجرى (الثـامن عشر الميلادى)؛ ولكن الأزمة الاقتصادية طغت على البلاد بعد الفتح الأفغانى ؛ وقنع القوم بالرخيص من الأقمشة ، ولا سيما المنسوجات المطبوعة المعروفة باسم «قلم كار» ؛ وكانت تصنع بمدينة قاشان فى القرن الحادى عشر الهجرى ،

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢١٣٩ وج ٦ لوحة ١٠٧٤

وازدهرت صناعتها بعـد ذلك فى الهند وفى مدينة إصفهان . وأصبحت ، فى القرن المـاضى ، من أهم صادرات الشرق الى أوربا ولا سيما من إصفهان وهمذان ويزد .

ومهما يكن من الأمر فقـد انحط نوع النسيج ، كما قلت جودة المواد والصبغات المستخدمة فيـه . والراجح أن أكبر مراكز النسج فى هذا العصر كانت فى يزد وقاشان وإصفهان وابيانه وشرقى إيران .

وكانت يزد تنتج الحرير الأخضر ذا الزخارف المكونة من الزهور والأشجار . وأصاب النساجون فى قاشان بعض التوفيق فى صـناعة الأقمشة ذات الزخارف الآدمية . وظل زملاؤهم فى إصفهان يقبلون على رسوم الزهور فى منسوجاتهم .

* * *

ولا يفوتنا أن التطريز معروف فى إيران منذ العصور القديمة . وقد أشار الرحالة الايرانى ناصر خسرو الى شارع فى إصفهان اسمه شارع الطرازين ، نسبه الى التجار الذين كانوا يسكنونه . كما أن الرحالة البندقى ماركو بولو ذكر مهارة السيدات بمدينة كرمان فى تطريز المنسوجات الحريرية برسوم الطيور والحيوان والأشجار والزهور . وقد شهد بعض الرحالة الأوربيين بين القرنين التاسع والحادى عشر بعد الهجرة (الخامس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) ما يؤيد قول ناصر خسرو وماركو بولو عن إبداع المنسوجات الايرانية المطرزة . وفضلا عن ذلك فان بعض نماذج الأقمشة المطرزة لا تزال باقية حتى اليوم وأكثرها يرجع الى القرنين المـاضيين ، وأهم أنواعها سراويل النساء وكانت

تصـنع من القطن وتطرز فيهـا بالحرير رسـوم الزهور وما الى ذلك من الزخارف النباتية .

والواقع أن المصادر الأدبيـة والتاريخية تتحدث عن الأقمشة الايرانيـة المطرزة منـذ العصر السلجوقى ؛ ولكننا لا نعرف منسوجات إيرانية مطرزة تطريزا زخرفيا صحيحا قبل عصر الدولة الصفوية . والمعروف أن الأعلام والخيام فى العصر التيمورى كان يعنى بتطريزها عناية خاصة . ومما يدل على ازدهار التطريز فى العصر الصفوى قطعة محفوظة فى متحف الفنون التطبيقية بمدينة بودابست ؛ وترجع الى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وفيها رسم وليمة فى الهواء الطلق ، جمعت زهاء أربعين شخصا يتوسطهم الأمير (انظر شكل ١٢٤) ؛ ويحيط بهذا الرسم إطار فيه رسوم ملائكة مجنحين .